نقاد القصـــة في العـــراق

ملاحظات وإشارات

عبد الرحمن مجيد الربيعي

- ١ -

إن الكثير من الكتابات والأحاديث التي تظهر لا في صفحاتنا الأدبية فقط بل وفي الوطن العربي تتهم النقد والنقاد . وما دامت هذه الكتابات كثيرة فإنها تشير إلى وجود خلل في هذا المجال ، وقبل أيام قرأت حواراً مع الدكتور علي جواد الطاهر وهو الناقد المتخصص والغزير الانتاج يتهم فيه النقد والنقاد أيضاً بالتقصير . هكذا فهمت ، وهكذا يجب أن يفهم الزملاء الذين اختاروا النقد مجالاً لعطائهم .

- ٢ -

لست هنا في مجال تعداد الاسباب التي أدت إلى مثل هذا الخلل في النقد . ولنتكلم عن النقد العراقي والقصصي على وجه التحديد . ولكن لعل أهمها عدم تفرغ النقاد لدراسة جميع النصوص القصصية الجديدة وتوجهاتها . ولعل العذر معهم ان وجدنا الكثيرين منهم يمارسون مهمات ثقافية متعددة أملتها عليهم طبيعة الفترة التي يمر بها قطرنا . ومنها أيضاً عدم قناعة الكثيرين من النقاد بما هو عراقي . وتبدو المفارقة كبيرة اذا وجدنا أن تقييم الكثير من قصاصينا جاء من الخارج ولم يصدر من الداخل قط . ولعل هناك تفسيراً آخر لهذا الأمر ربما يرجع إلى ان الكتابة عن عمل قصصي عراقي قد تحرج الناقد وتضعه في شراك هو في غنى عنها ، لذلك يفضل الكتابة عن عمل عربي أو عالمي ويجلس مرتاحاً بعد ذلك ومطمئناً كل الاطمئنان .

وهناك أسباب وأسباب أخرى لعل تلك المقولة الخالدة تفرض نفسها فيها وهي ان (مغنية الحي لا تطرب) وبامكاني أن استشهد بكتّاب ومجلات تصدر في القطر ، ، ومن المفروض أن تكون لهذا القطر وكتّابه حصة كبيرة فيها ، وهذه مسألة مشروعة رغم التوجّه القومي العام ، ولأن المجلة تصدر بالتالي في بغداد وليس في مكان آخر ، كما أن مجمل الكتابات والمجلات التي تصدر في هذا القطر تكمل ما يصدر في القطر الآخر مكونة حركة الابداع العربي كله .

- ٣ -

قد يقول البعض تفسيراً لهذه الظاهرة ان النقاد قاصرون عن استيعاب الجديد وأنهم غالباً لا يستطيعون أن يفهموا ما يريده الكتاب الجدد ، وهذا أمر وارد ويجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار . ولكن الحوار بين الناقد والمبدع من شأنه أن يقربهما الى بعضهما ويجعلهما يتفاعلان بعمق لما فيه إغناء للنقد والإبداع معاً ، خاصة اذا انطلقا من منطلقين متحابين دون أن يحس أحدهما بالحرج أمام الآخر مهما كانت نقاط الاختلاف .

- ٤ -

كثيرة هي الاسماء التي كتبت في نقد القصة ، وأصدرت اكثر من كتاب في هذا الموضوع . وأمامنا في العراق تجارب الدكتور الطاهر والدكتور عبد الإله احمد وفاضل تامر وياسين النصير وباسم حمودي ومؤيد الطلال ومحمد الجزائري والدكتور عمر الطالب ورزاق ابراهيم حسن وعبد الجبار عباس وسليم السامرائي ويوسف نمر ذياب وحمزة مصطفى وسليمان البكري ، اضافة إلى دارسين اكاديميين جدد للقصة كصبري مسلم وعبد الرضا علي وباقر جواد والدكتور محسن الموسوي وغيرهم . وكل هؤلاء لهم جهود بينة سدّت ثغرة كبيرة في مجال النقد القصصي العراقي . ولكن يلاحظ عليهم عدم الاستمرار في أداء مهمتهم الكبيرة بعد أن أخذ الفن القصصي العراقي يفرض حضوره عربياً وعالمياً أيضاً .

- ٥ -

وبعيداً عن كل المؤثرات فلا بد من تقييم تجربة هؤلاء النقاد وما يسجل عليها من ملاحظات ، ولا بد من تناولهم كل واحد على انفراد من اجل تحقيق هذه الغاية ، فكلمة الحق يجب أن تقال لأنها المرشد والهادي في هذه المسيرة الملأى .

- ٦ -

تشكل تجربة الدكتور علي جواد الطاهر معلماً واضحاً في نقد القصة العراقية وكمتذوق لها منذ بواكيرها ، ولعل المختارات التي قدم لها وأصدرها قبل سنوات تعد مرجعاً لدراسة القصة العراقية ، وما زال العديد من الاساتذة الجامعيين - وخاصة في تونس كما رأيت - يعتمدونها في تدريسهم . واذا كان الدكتور قد صاحب الرواد في رحلتهم فانه واصل الحماس نفسه مع الخمسينيين واستمر في ذلك مع الشباب الذين بدأ ظهورهم الصاخب في أعقاب ثورة تموز الأولى عام ١٩٥٨ . ولكننا نلاحظ على الدكتور الطاهر ردود أفعال في الكثير من كتاباته ، فهو اما محب فيتحمس ويبرر حتى الخطأ ، وليعذرني مثلاً ان ضربت مثالاً بحماسه لكاتب خمسيني تحدث عن تجربته مرة وثناء الطاهر على هذا الكاتب مع العلم أن جميع الحاضرين قد كسفوا من سذاجة حديث هذا الكاتب عن تجربته - وأنا هنا قد أعذر هذا الكاتب فليس من واجب الكتاب الحديث عن تجاربهم وانارتها الا في حالات خاصة وملحة وأن مهمتهم تنتهي بانتهاء كتابتهم للعمل القصصي .

كما أن الدكتور الطاهر قد راهن على أسماء وكتب كلمات ثناء لها ولم تعد هذه الاسماء حاضرة اليوم ، ولذا نراه يتراجع في الكثير من احكامه المسبقة وخاصة في حواره الذي أشرت اليه مع المجلة العربية (مجلة الاسبوع العربي - بيروت - العدد ١١٥٥) .

ولكننا مع هذا نجد أن احكامه الذوقية ما زالت متوقفة عند جيل الخمسينات ويعتبرهم المثال والنموذج في كتابة القصة رغم انه لم يظلم الجيل اللاحق أو يشكك في اجتهاده ، وهذا أمر تقع مسؤوليته على الطاهر نفسه ، فمن حقه ذلك ، كما ان من حق ناقد آخر أن يتحمس لجيل سابق أو لاحق .

بمعزل عن هذه الملاحظات فإن الدكتور الطاهر يحتضن بأبوية وحرص تجارب القصة العراقية مهما كان مصدرها ، وما زلنا في انتظار أن يستكمل مختاراته للقصة العراقية ويواصل دراساته المستفيضة عنها وإن وضعه الشخصي البعيد عن المؤثرات اليومية يؤهله لذلك .

- ٧ -

في العراق لا يذكر نقد القصة العراقية الا ويذكر كتاب الدكتور عبد الإله احمد الذي صدر في جزءين عن وزارة الثقافة والاعلام العراقية . وهذا الكتاب يعد مرجعاً مهماً وخاصة للطلبة والباحثين لما فيه من تعريف وتوثيق . ولكن الملاحظة التي تسجل عليه هو تفصيله لأكثر بحوثه على هذا الكاتب دون ذاك ، والمبرر الوحيد ربما يكون العلاقة الشخصية مما أبعد كتابه عن العلمية الدقيقة وحصره في زاوية ضيقة .

بعد صدور كتاب الدكتور احمد هذا وقبله الفهرست الكبير للقصة العراقية كنا نأمل منه أن يواصل العطاء وفق منهاجه الاكاديمي والساحة تغص بالأسماء والنتاجات . ولكن هذا لم يحدث حتى الآن . وعلى أية حال فان رجلاً مثل الدكتور احمد انفق سنوات طويلة منقباً في أعماق الكتب والمجلات القديمة ليقدم لنا كتابه الهام (رسالة دكتوراه) ما زال مؤهلاً ليعطي الكثير .

- ٨ -

من الأسماء التي درست القصة العراقية بتذوق مميز الناقد فاضل تامر ، وعلى الرغم من أن ما كتبه يشكل مختارات غير ممنهجة ، الا ان ملاحظاته كانت مهمة وأكثر قدرة على النفاذ الى التجارب الجديدة في القصة العراقية . في كتابه المشترك مع ياسين النصير حقق هذا وكذلك في كتابه النقدي الآخر الذي أصدرته وزارة الثقافة والاعلام العراقية ، وكان من الممكن لفاضل تامر أن يكون أكثر تأثيراً في مسار النقد العراقي ولكن يبدو انه انسحب عن أداء هذه المهمة وربما يعود في وقت قريب ليواصل عطاءه .

ونجد ان باسم عبد الحميد حمودي ما زال يواصل تتبعه المبكر لدراسة القصة العراقية في شتى مراحلها وكتبه النقدية الثلاثة مؤشر مهم لدراسة هذه القصة التي اقترنت فيها أحكامه النقدية بطبيعته ككاتب قصة أيضاً . وعلى الرغم من حماسه للتجارب الجديدة المتمثلة في القصة الستينية فاننا نجده ما زال مشدوداً الى الخمسينيين لأنه ظهر في أواخر عهدهم وتأثر بهم ناقداً وقاصاً أيضاً .

- ٩ -

يقترن اسم ياسين النصير بفاضل تامر ، لا سيما بعد أن أصدرا كتابهما المشترك ، ولكن من الملاحظ على النصير انه أكثر تزمتاً وان له معاييره المسبقة التي تفرض نفسها عليه أثناء الكتابة . وهذا قد يوقعه في منهجية جافة لن تكون في صالح العطاء القصصي المنقود ، وان مقارنة مقدمته في الكتاب المذكور مع مقدمة تامر تكشف لنا عن مرونة الثاني وتصلب الأول .

ولكن الملاحظ على النصير اصراره في أن يعطي ويواصل بعد توقف ومراوحة الكثيرين ولعله وجد في المسرح متنفساً أكبر فكاد أن يتفرغ له فيما كتبه أخيراً على الرغم من أن الحاجة ما زالت ماسة لعطائه النقدي في مجال القصة .

- ١٠ -

يمثل شجاع مسلم العاني نموذجاً للمتذوق الأنيق للقصة العراقية منذ أن بدأت علاقته الأولى معها في رسالته الجامعية (المرأة في القصة العراقية)التي يسجل عليها انها كانت ناقصة ، ولم تستكمل دراسة

الكثير من النماذج المتقدمة والمضيئة في القصة العراقية . رغم ان الأكاديمية تفرض عليه أن يكون شمولياً وموثقاً ودارساً في الوقت نفسه .

ولكن دراساته التي نشرها بعد رسالته هذه تمثل قفزة في مساره النقدي ، وقد استطاع أن يدرس العديد من الأعمال العراقية والعربية بنفس نقدي جديد . رغم أنه قد وقع فيما وقع فيه الكثيرون حيث تحمس لبعض الأسماء تحمساً غير مبرر ، ونفخ فيها الكثير ولكن أحجامها ظلت مع هذا في حدودها . ولم تستطع أن تكون المعلم ولا المؤشر في مسار القصة العراقية . وأنا هنا لا أؤاخذ ولكنني أنبه ويبدو أن هذه المسألة ستظل تتحكم في عطاء النقاد مهما حاولوا أن يكونوا موضوعيين . وهو أمر يقتضي منهم أن يكونوا قساة على أنفسهم قبل أن يقسوا على أي عمل قصصي يتناولونه .

مسألة أخرى تقال عن شجاع مسلم العاني انه قد غاب عن الساحة ومنذ سنوات لم نعد نقرأ له جديداً .

- ١١ -

لعل مؤيد الطلال من بين أكثر الأسماء النقدية في العراق دأباً وأناة . وهو وإن لم يصدر كتاباً حتى الآن فإن كتاباته تؤشر لناقد واعٍ ومتذوق ، استطاع أن يلم ببعض تجارب الرواد ـ عبد الحق فاضل مثلاً ـ اضافة الى الكتاب الشبان الآخرين ، كما أنه رصد بعض الظواهر الفكرية والفنية في القصة العراقية ، ولكننا نلاحظ على هذا الناقد محاولاته في الكتابة عن بعض الروايات العالمية ـ عن ايتماتوف أخيراً ـ وأعتقد أن الروائي العراقي بحاجة أكبر لأن تتناول أعماله بمثل هذا الجهد الذي كتب به عن (الكلب الأبلق . .) لأيتماتوف . إن هذا الناقد مدعو لتكثيف جهود أكبر ومنهجة دراساته ـ كما فعل مع بعض الرواد ـ من اجل أن يكون ويظل ذلك الصوت الشاب في مسيرة نقد القصة في العراق .

- ١٢ -

في السنوات الأخيرة كبرت خارطة النقد القصصي في العراق وقد كتب الناقد محمد الجزائري الذي عرف بدراساته للشعر عدة دراسات هامة ومتميزة وطويلة . أعطاها الجهد الكبير . وكانت أواخر الستينات فترة تألقه في هذا المجال التي نشر خلالها في (الآداب) اللبنانية بعض الدراسات التي تدلل على حياديته وعلى تقدميته في فهم العطاء القصصي الجديد . ومنذ سنوات لم نقرأ للجزائري مثل هذه الأعمال التي تحتاج إلى وقت والى جهد ، ولعلنا قد نربح مثقفينا الجيدين في مواقع رأسية في اجهزة الثقافة ولكننا نخسر فيهم الجانب الأهم والباقي وهو ابداعهم الكتابي ، ولعل الجزائري واحد من هؤلاء الذين أخذتهم هذه المشاغل رغم حاجة الساحة الأدبية إلى صوت واثق مثل صوته .

- ١٣ -

منذ سنوات عدة يرصد الدكتور عمر الطالب القصة العراقية ، وهو شغوف بها بشكل خاص دارساً وموثقاً ، وقد نشر في هذا المجال مقالات وكتباً تميزت بعلميتها الرصينة ، ولعل وجوده البعيد عن ساحة بغداد الثقافية الساخنة وابتعاده عن المؤثرات الشخصية اليومية هما اللذان ساعداه في أداء مهمته بطريقة انصفت الكثيرين ولم تثر غضبة احد . وقد أصدر أخيراً دراسة شاملة عن القصة العراقية آمل أن يكون لها موقعها في مسيرة النقد القصصي العراقي لما فيه بلورة وايضاح وانارة التجارب الجيدة والأصيلة في القصة . قد أسجل على الدكتور الطالب مأخذاً باهتمامه ببعض الاسماء المنسية وغير المؤثرة . ولكن يبدو أن طبيعة الاستاذ والدارس الأكاديمي فيه هي التي املت عليه هذا الأمر .

- ١٤ -

يتفرد عبد الجبار عباس بطعم خاص في كتاباته النقدية ،وقد كانت كتاباته عن القصة العراقية ثمرة تعدتها الى القصة العربية أيضاً ، وقد أصدر كتباً في هذا المجال . ولكن يبدو عليه انه قد تعب في الآونة الأخيرة وأخذ يكتفي بكتابة التعاريف القصيرة عن هذه المجموعة أو تلك الرواية وعلى الرغم من وجود الرأي المتطلع والمتذوق والجاد في هذه التعاريف إلا انها تظل غير مشبعة . كما انه كثيراً ما يقع في المزاجية ويندفع في حماسه لبعض الأسماء التي يخيب ظنه فيها سريعاً . وفي مواضيعه المنشورة الكثير من هذه المفارقات .

- ١٥ -

كان من الممكن ليوسف نمر ذياب أن يكون ناقداً قصصياً متميزاً وكان من الممكن له أن يكون ناقداً شعرياً متميزاً أيضاً ، فهو مؤهل لأداء المهمتين بحكم طبيعته كأستاذ لغة قديم ومتابع دقيق لما ينشر . وقد نقبل منه الوضعين فهناك نقاد عرب كبار برزوا مثلاً في دراسة فنين أو أكثر كالدكتور احسان عباس وآخرين غيره ، ولكن يوسف نمر ذياب بدأ الكتابة عن أمور أخرى وكتاباته متقطعة لا تتواصل ، ومع هذا تميز دوماً بجرأته على قول أحكام كثيرة تردد آخرون غيره في الافصاح عنها .

- ١٦ -

من الممكن القول إن لرزاق ابراهيم حسن قدرة ملفتة لدراسة الرواية العراقية خاصة ، ودلل على هذا في عدد من دراساته المنشورة عن هذا الكاتب أو ذاك ، وكذلك اهتمامه بالقصة العمالية وبحثه عن نماذج منها جمعها في كتاب فيما بعد ، ما يقال عنه أنه هو الآخر قد تقاعس عن المواصلة وخاصة في السنتين الأخيرتين ولم نعد نقرأ له

تلك الدراسات المتحمسة لبعض الكتب أو الكتّاب .

- ١٧ -

عندما جاء سليم السامرائي من العمارة كانت تسبقه مجموعة من الكتابات التي نشرها في هذه المجلة أو تلك الصحيفة على الرغم من المأخذ الذي سجل عليه بحماسه لرواية عراقية شابة ومقارنتها بعمل روائي عالمي كبير . ليس هذا بالمهم ولكن المهم هو تركيز السامرائي على دراسة القصة . وقد واصل الكتابة وهو في بغداد بنفس تلك البراءة (العمارية) . ثم جاء اختياره لنماذج من القصة العراقية وكتابته مقدمة لها ، وكذلك دراسته للمرحوم يوسف متي كمؤشرات على مواصلته في هذا المجال ، ولكنه هو الآخر غاب في السنوات الأخيرة ولم أستطع حتى الآن أن أجد له عذراً وبامكاننا القول إن عمله في مجلة الأقلام يؤهله للمتابعة والكتابة أكثر .

- ١٨ -

لقد استعرضت بعض الأسماء التي كتبت النقد وسجلت ملاحظاتي عليها وهي ملاحظات مبعثها الحرص على هذا الفن الوليد والعظيم ـ القصة ، والذي أصبح المتلقي بحاجة إلى الانارة الواعية التي تشكل الدليل له وهو يقرأ القصة ـ وخاصة الشابة ـ بعد أن اعتاد على نمط معين من الكتابة القصصية .

ولم يبقَ الأمر محصوراً عند تلك الاسماء بل رفدت الحركة النقدية بأسماء جديدة أخرى ، وهذه المرة من الوسط الجامعي .

وأذكر منهم الدكتور محسن الموسوي الذي أظهر حماساً مبكراً لدراسة الرواية وأصدر كتاباً نقدياً عنها قبل سفره إلى كندا لاستكمال دراسته . وكان موضوع رسالته عن ألف ليلة وليلة يضعه في اللجة وبأضواء جديدة ومتجذرة . وقد وجدنا ان حماسه بدأ يتصاعد إثر عودته ونشر مجموعة مقالات ـ عن الرواية العربية بشكل عام ـ ولكنه اختفى فجأة ليظهر بمقالات عن الأعلام ، وربما نزعه كأعلامي ولكن خسارتنا فيه كناقد قصصي واعٍ أكبر .

من الأسماء الجامعية الشابة اذكر صبري مسلم هادي الذي أصدر كتاباً عن اثر التراث الشعبي في الرواية العراقية الحديثة ـ وهو موضوع رسالته في الماجستير ـ وكذلك عبد الرضا علي الذي أصدر كتاباً عن قاص عراقي ـ وهو موضوع رسالته للدبلوم العالي ـ وباقر جواد الذي أصدر أيضاً كتاباً عن الرواية العراقية وقضية الريف . وكل هذه الكتب تستكمل جوانب في نقد القصة العراقية لم يتطرق اليها الباحثون من قبل ولعلها تكون بدايات لدراسات أكاديمية أخرى تتناول الفن القصصي العراقي الذي أصبح عمره الآن يربو على الستين عاماً .

- ١٩ -

واستكمالاً لرسم خارطة نقاد القصة في العراق لا بد ان ننوه بجهود أخرى لحمزة مصطفى وسليمان البكري وعباس عبد جاسم وغيرهم حيث نشروا عدداً من الدراسات الواعدة في نقد القصة العراقية ، وأصدر البكري كتاباً عن قاص عراقي ، ونشير أيضاً الى الجهود التي قام بها بعض القصاصين في هذا المجال كموسى كريدي في مقدمة كتابه عن القصص القومية الاشتراكية في الأدب العربي ، وعبد الستار ناصر في دراسته المرهفة عن القصة العراقية والتي نشرتها (الموقف الأدبي) في عدة أعداد ، وكذلك برهان الخطيب الذي انجز هو الآخر دراسة جامعية في موسكو عن القصة العراقية لم يتسن لنا الإطلاع الا على فصل منها في (الأقلام) ، وقد لمسنا في هذا الفصل روح المتذوق لا روح الأكاديمي فقط وهو أمر فرضته طبيعة الدارس ككاتب قصة أولاً . ونشير أيضاً الى أكثر من موضوع نشره انور الغساني وخاصة دراسته عن أمراض القصة العراقية رغم مؤاخذتي على التزمت الايديولوجي فيها . وهو أمر قد يجحف شأن الكثير من الأعمال بحجة الأيديولوجيا وهي ليست كل شيء ، كما نشر الربيعي ـ كقاص ـ كتاباً بعنوان (الشاطىء الجديد ـ قراءة في كتاب القصة العربية) ولعل مقدمته تبرر نشره وتعطي الضوء على ما جاء فيه .

- ٢٠ -

أعتقد بأن ذكر الاسماء قد جاء لضرورة أملتها طبيعة هذه المقالة في محاولةلتأشير الملامح والعطاءات، وعلى الرغم من قلة الأسماء الناقدة قياساً الى عدد كتاب القصة في العراق فإن هؤلاء النقاد قد استطاعوا أن يؤرخوا وأن يستشفوا ويقدموا القصة العراقية إلى القارئين العربي والعراقي ، ولكن يبقى الجهد ناقصاً ما لم يتواصل وما لم يحس نقاد القصة أنفسهم أن النقد هو مهمتهم الأولى والباقية والتي ستظل شاهداً ومرجعاً ، وبعكسه فإن الكثير من الممارسات الأخرى تبقى قصيرة العمر ومرهونة بلحظاتها ومردوداتها ربما المادية في الغالب .

إن القصة العراقية وليد شرعي ، والزمن العربي والعراقي والإنساني معها لما لها من طاقة على الاحتضان والتعبير ، ولكن الكثيرين من كتابها قد يضلون الطريق ، وهنا يأتي دور الناقد ليمارس رقابته الصارمة وقول الكلمة في وقتها ومكانها من اجل تصحيح المسار لما فيه اغناء هذه القصة لتكون بحق وجهنا الإبداعي الجديد الذي نطل به على العالم .

- تونس -

(*) لم أتطرق في هذا الموضوع الى دراسات النقاد العرب والمستشرقين للقصة العراقية لأنها تشكل منطلقاً لموضوع آخر . ومنها ما كتبه الدكتور سهيل ادريس خاصة وأحمد محمد عطية والدكتور أفنان القاسم وغيرهم . وأتمنى أن لا اكون قد نسيت أحداً من نقاد القصة في العراق وان حدث ذلك فهو أمر غير متعمد .